حزب البعث العربي الإشتراكي

القيادة القومية

مدرسة الإعداد الحزبي

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة



المنهج الجدلي العلمي التاريخي والمنظور الإنبعاثي الجديـــــد

الدكتور إلياس فرح



منشورات الطليعـــة
تونس
2000

المنهج الجدلي العلمي التاريخي والمنظور الإنبعاثي الجديد

الدكتور إلياس فرح ـــ بغداد 1981

إن الانطلاق من تصور انبعاثي للمرحلة التاريخية ، قد كان بحد ذاته ، نتيجة لخطوة نوعية ، على طريق انضاج منهج جديد تميز به فكر البعث .

فمنذ المقالة الأولى (عهد البطولة)، تحرص نصوص (في سبيل البعث) ، على التأكيد بأن المرحلة الجديدة ، التي دخلتها النهضة العربية المعاصرة ، تحتاج إلى ذهنية جديدة ، وفهم جديد ، ونظرة جديدة إلى الواقع العربي ، وبالتالي إلى منهج فكر جديد . لأن الصفحة الجديدة ، كما يقول النص :

« صفحة الذين يجابهون المعضلات العامة ببرودة العقل ، ولهيب الايمان » .

و « صفحة الذين اذا اكتشفوا في فكرهم خطأ رجعوا عنه . لأن غايتهم الحقيقة لا أنفسهم » .

و « صفحة الذين لا يطلبون الاستقلال والحرية ، ليقيموا سداً بينهم وبين الشعوب ، والحضارة الانسانية » .

(فالعقلانية الجديدة)، التي يتكامل ضمن إطارها عمل العقل المنطقي ، مع الدوافع الروحية العميقة ، التي تحرك العرب في هذه المرحلة التاريخية . . ، و (الموضوعية العلمية) ، والحس النقدي ، والتمسك بمعيار الحقيقة الموضوعية المتمثلة بحقيقة الأمة وحاجات نهضتها وانبعاثها . . ، و (الانفتاح الفكري) ، والنظرة الحضارية ، والتفاعل الحضاري . . . ، كل ذلك يشكل جوانب متكاملة من الشروط التي التزمها ، وتمسك بها منهج فكر البعث .

واذا تابعنا دراسة نصوص (في سبيل البعث)خلال السنوات ١٩٣٥-١٩٦٠ ، التي اندرجت فيها ، لاحظنا هذا الاهتمام المتصاعد بالمسألة

المنهجية ، وتوضحت لنا الابعاد والسمات الرئيسية لهذا المنهج العلمي الثوري .

إن عوامل كثيرة قد جعلت من الاهتمام بالمسألة المنهجية ، قضية مركزية في نصوص (في سبيل البعث) . فالحركات الوطنية ، والاحزاب السياسية ، كانت تنطلق من نظرات سلفية جامدة ، أو تقدمية مغتربة . أو تعبر عن مفاهيم اقليمية أو أطر اجتماعية او مذهبية ، ضيقة . وكانت تلك النظرات والمواقف تستند إلى مناهج في التفكير ، وإلى ثقافات ومصالح ، ترتبط بالأصل بواقع المرحلة السلبية التي عرفت تاريخياً ، بمرحلة الانحطاط . تلك المرحلة التي جعلت من الفكر العربي أداة لتبرير معطياتها . أو دفعته الى الاغتراب ، فأصبح امتداداً لثقافات ولمناهج فكر ، باتت تشكو بحد ذاتها من أزمة تكيف مع معطيات عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية .

فالمناهج الفلسفية ، المثالية الصورية ، أو الجدلية المادية . وكذلك المناهج الوضعيّة وغيرها من المناهج الاختبارية والذرائعية ، التي عرفها الفكر الغربي ، لم تعد تستوعب صورة العالم الجديد ، وانعكست أزمتها على الفكر العربي المغترب ذاته . . . كل ذلك في وقت لم تكن فيه شروط القدرة على شق طريق مبدع أصيل ، قائم على تحقيق معادلة الأصالة والحداثة ، قد نضجت ضمن تيار النهضة العربية .

فالمحاولات التي شهدتها المراحل الأولى للنهضة العربية ، في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، لشق هذه الطريق الجديدة ، ظلت تعاني من آثار المرحلة السابقة للنهضة ، وكذلك من ضغط المرحلة الاستعمارية اللاحقة . . . فكان الفكر العربي يخضع لأسر هذه الحالة الثنائية . لذلك كان الهم الاساسي لفكر البعث ، منذ منتصف الثلاثينات ، وضع قواعد منهجية جديدة ، في الفكر ، وفي النضال ، جعلته يتجنب الأساليب السياسية التي تقوم على الدعاية ، ودفعته إلى التركيز على (الكتابة) التي تتوجه الى العقل الهادئ الرصين والعاطفة العميقة الصادقة ، وعدم الاعتماد على (الخطابة) التي كانت أسلوباً رائجاً .

فالحقيقة هي الغاية ، واكتشاف قوانينها الحية هو الأساس ، لأن حقيقة الأمة الموضوعية هي المنطلق .

وهكذا طرح فكر البعث نفسه منذ البداية طرحاً واثقاً لأنه يرتكز الى ارضية صلبة . وكانت هذه الثقة مقترنة دوماً بإرادة الحوار مع شباب الأمة ، وبميل إلى استخدام (النقد الذاتي) كسلاح يعزز النقد للآخر . ففي نص (ثروة الحياة) عام ١٩٣٦ . وهو النص الثاني (في سبيل البعث) يقول :

« نعم إننا ثوريون ندعو لشكل جديد من أشكال المجتمع نعتقد فيه الخير وتحقيق السعادة . ولكن ألا يحق للذين لم يهتدوا بعد إلى ما أهتدينا إليه ، ولا اطلعوا على الذي اطلعنا عليه أن يسألوا : « وما هي فضائل هذا الجديد الذي تقترحونه علينا ، اننا مستاؤ ون من القديم ، ولكن ، أيكفي ذلك أن يورطنا في جديد مجهول ؟ » . إنهم على صواب ، وليت هذا الجديد كان مجهولاً عندهم ، اذن لاكتفينا بتعريفه إليهم ، ولكنهم يعرفونه معرفة خاطئة ، مشبوهة ، وواجبنا يقضي بأن نمحو هذه الشبهات عن وجه الحقيقة » .

إن جديد البعث يكمن في تجاوز (المصادر) التي كان يستمد منها الفكر العربي الذي سبقه (سلفياً كان أم تقدمياً) كل معطياته . فالمفاهيم الجديدة التي بدأ ينضجها فكر البعث داخل بوتقة المعاناة النضالية ، المتصلة بنهضة الأمة العربية ، قد تجاوزت مستوى قراءة الكتب إلى مستوى تمثلها تمثلاً حياً ، وتحررت من إطار الاقتباس المنفعل ، ودخلت في مرحلة الابداع المتجدد ، لأنها نهلت من المصادر الأكبر المتمثل بحياة الأمة ومعاناتها . لذلك جاء القول : « اننا لسنا إلا نتاج أمتنا » ، والقول : « تتلخص فلسفة البعث العربي في هذه الكلمة : ثقة الأمة العربية بنفسها » فالفكر الثوري هو الذي ينبع من حاجات يقظة الأمة العربية ومن معاناتها النضالية وكفاح جماهيرها ضد القوى الخارجية والداخلية المعادية والمتآمرة على انبعاثها .

أي ان الفكر ينبغي أن يتغذى من تراث الأمة ، وأن يكون في مستوى القضية التي تقرر مصير الأمة الراهن ، وأن يستوعب تيارات العصر ، وأن تكون ابعاده التاريخية والنضالية ملتحمة بأسسه الاخلاقية وآفاقه الحضارية .

تلك هي نقطة الانطلاق الاساسية التي تحدد (جدة) فكر البعث ، وتميزه عن الايديولوجيات التي سبقت نشوءه . فوراء الافكار تكمن مصادر ومصالح ومناهج فكر ، ينبغي أن تكون جديدة ومتميزة حتى يأتي الفكر أصيلاً ومبدعاً . وهذا ما عناه النص في مقالة (الحركة الفكرية الشاملة) حيث يقول :

« ونحن الذين لا ننخدع بالمظاهر نعلم أن وراء كل رأي عوامل نفسية وعوامل خلقية وعوامل مصلحية ، وفي أغلب الاحيان ليس التباين بيننا وبين الآخرين تبايناً في الفكر ، وإنما هو تباين في المصلحة ، ومقدار التجرد عن المنافع الخاصة . فالذين يجدون ان الأمة العربية لم تنضج بعد كي توضع قضيتها في الشكل العالمي ، لا يعبرون في الحقيقة عن رأيهم في الأمة وإنما عن أنانيتهم ومصالحهم الخاصة » .

وعلى هذا الاساس ، كانت « حال البعث هي حال الأمة . فالأمة ، في هذا الدور التاريخي ، تبحث عن الحل الملائم لها المتكافىء مع عظمة قدرها » كما كانت للبعث (فكرته ومنطقه) ، الصادقين الأصيلين المتحررين من « إيحاءات الوسط والبيئة ، وعدوى التقليد ، وشهوة الاستعجال والتشبه بالحركات الرائجة التي تنشد النجاح الرخيص » لأن البعث (حركة تاريخية) فالبعث له منطق وموقف ؟ ينبعان من ضرورات مهمته التاريخية . وهو « كالكائنات الحية التي تنمو حسب قوانين ثابتة » فهي تستمد من منطق الحياة ذاته مبررات الوجود والنمو والتطور والتقدم والازدهار والعطاء . ففكر البعث « جاء متجاوباً مع يقظة في الروح العربية ، مع حاجة عميقة في روح امتنا إلى الانطلاق وإلى الخلق » . لذلك فهو ينظر إلى فكر النهضة والانبعاث من خلال نظرة حية انبعاثية .

فمقالة (نظرتنا الحية الى الحرب) عام ١٩٥٥ ، تلقي بأضواء على منهج الفكر الانبعاثي . فعهد البطولة يتطلب (الفكر البطولي) . الفكر الذي يأتي مكملاً (لذلك الايمان الأول ، ايمان الابطال) الذي يجعل المناضلين « يحتفظون في انفسهم ببراءة الأطفال وقوة اندفاعهم نحو المثل دون أن يعيروا للمصاعب ولضغط الوسط أي أهتمام » .

وهو الفكر الذي يتجنب (النظرة الجامدة التي لا تفهم سر الحياة وكنه الحياة) ، والتي تتوقف لتحول الموقف الحي والفكر الحي إلى (نقد جامد وتفكير نظري) لأن الفكر الانبعاثي رأى في المرحلة الانحطاطية التي سبقت مرحلة النهضة الجديدة ، كما رأى في تجارب الشعوب الأخرى كيف تتعرض « الحركات ، والاشخاص ، والافكار ، إلى أن تفقد من عفويتها وحريتها ومن أصالتها ، فتطغى عليها الالفاظ وتصبح صنماً . وهذا شر ما تبتلي به جهة تريد أن تخلق وتبدع » .
فإذا كان قانون (الحياة) الاول وقانون (الفكر) ، هو (الحرية) فإن الفكر الانبعاثي يرفض كل ما يجمد الحياة والفكر ، في قوالب من النظريات الجاهزة ، والشعارات التقليدية ، والألفاظ . ويرفض كل موقف نفسي متراخٍ بعيد عن روح النهضة العربية ، وكل موقف فكري لا ينبع من المعاناة وتجربةً الحرية والاستقلالية ، والنضال الطويل الصادق والعميق ، والصمت الفعّال المنتج :

« لا بد من زيادة التوتر والصراع . لا بد من محاربة كل ميل للراحة والكسل ، ولإنهاء النضال او اختصاره . لكي يعود الصراع الداخلي في نفس كل فرد ، لكي يأتي البعث اصيلاً بأوسع ما في الكلمة من معنى ـ بعث في الروح وفي الفكر والاخلاق والانتاج والبناء وكل الموؤهلات والكفاءات » .

فالمهم هو أن تنشأ (عقلية جديدة) و (منهج فكر جديد) :

« عندما ننجح في تهديم العقلية القديمة وخلق عقلية جديدة ، نكون قد قدمنا للعرب عامة تجربة وقدوة . عقلية الانحطاط والتأخر ، يجب أن تزال » .

فالفكر الجديد ينبغي أن يستوعب التجربة الحية للأمة لا أن يكتفي بالتعامل مع النظريات والايديولوجيات المطروحة ، على مستوى المعرفة النظرية والمنطق المجرد . لأن مهمة هذا الفكر أن يصنع اسلحته الفكرية في معمل النضال والمعارك التي تخوضها الأمة . فهو عنوان لرسالة ، ودليل لطريق ، وقوة تاريخية ثورية ، لحركة وتنظيم وتخطيط ونضال ثوري ، وليس مجرد مدرسة فكرية . لأن الأمة ذاتها في هذه المرحلة التاريخية « لا تكون متحققة

إلا حيث يوجد نضال » فأمتنا موجودة اليوم « في كل مكان يحمل فيه افرادها السلاح » .والفكر الجديد « ليس إلا تعبيرا عن نضج الأمة، فهو لا يخلق الأمة ، بل هي تخلقه . وهو يستمد منها القوة ، ويترجم فقط حاجاتها وأمانيها ويعلن ارادتها » .

إن هذا المنطلق قد اعطى فكر البعث ، كما سوف يتضح من تحليل النص ، صفة (الفكر العلمي الجدلي التاريخي) ، الذي يمتلك ، شأن كل وعي ثوري حقيقي نظرة شاملة وعميقة إلى(الذات) وإلى (الآخر) مستوعبة للظروف العربية والعالمية ولسياقهما الجديد ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث دخلت جميع الايديولوجيات التي تكونت في سياق تاريخي سابق في امتحان عسير .

فالتحرر من أسر النظرات السابقة للمرحلة التاريخية الراهنة ، وامتلاك الحرية في التعامل معها ومع معطيات المرحلة الجديدة ، قد كان بمثابة (كلمة السر) في نجاح الفكر الجديد في استيعاب طبيعة هذه المرحلة ، وتمثّل ظروفها واحداثها ، وتوقع حلقات سلسلتها ، وشق طريق الثورة العربية المعاصرة .

فامتلاك (النظرة الصافية البريئة التي لم تعكرها المصالح والمفاهيم الموروثة او الأهواء والانانيات) هو الذي جعل الفكر الجديد :

« يدرك القوة حيث كان اكثر الناس لا يرون إلا الضعف والانحلال ، ويعتمد على هذه القوة لأنه كان يؤمن بأنها قوة حقيقية ، ويراهن على المستقبل ، وكانت نظرته منذ البداية بعيدة في العمق ، بعيدة في المكان وبعيدة في الزمان . فهي نظرت الى اعماق الأمة العربية المغلفة بواقع مريض ومشوه . ونظرت وهي التي ولدت في قطر صغير من أقطار الوطن العربي الواسع ، نظرت الى جميع اجزاء الوطن ، لم تفضل احداً منها . نظرت نظرة بعيدة في الزمن ، أي أنها توجهت إلى الشباب ، إلى تلك السن التي تحتاج إلى زمن غير قليل لكي تصبح قوة بالمعنى المتعارف عليه ، توجهت إلى الشباب العربي في جميع أقطاره . فهي في نزعتها العميقة كانت دوماً تتطلب الصعب ، تتطلب الشيء العميق ، الشيء الأصيل » .

إن هذه النظرة الجديدة كانت نتاج (منهج فكر جديد) انطلق منذ البدء ، من تجاوز لمستوى (رد الفعل) على الاوضاع القائمة التي هي مخلفات مرحلة سلبية . هذا المستوى الذي كان يكتفي بالموقف الرفضي و(بالنفي العقيم) الذي لا يرتفع إلى الموقف الفعال والحكم الحي على الواقع ، ولا يسمح بتغييره تغييراً عميقاً وشاملاً . كما أن هذه النظرية الجديدة انطلقت من التمييز والادراك « للفرق الاساس بين المبدأ كروح وبين المبدأ كذهن » . فالمبادىء « كتعبيرات ذهنية هي بحاجة إلى عمل طويل وإلى دراسة وبحث لكي ترتقي شيئاً فشيئاً وتفيد من دراسات الأمم الأخرى ، ومن نتائج البحث العلمي » . إلا أن هناك شيئاً بسيطاً وبديهياً انطلقت منه النظرة الجديدة للبعث ، إلى جانب الناحية النظرية . وهو يشكل (كلمة السر) التي (تبقي على صحة الطريق واستقامته وامانته) والتي (ينقلها كل فرد لآخر ، وكل جيل لآخر) . وهذا الشيء البسيط البديهي هو (الحس القومي) ، (الحس العام) الذي يكشف لنا عن وجودنا الحي المباشر الفردي والجماعي . فهذا الشعور (العفوي) هو « الميزة التي تميز الانسان في كل عصر وكل قطر » . وهو الاساس الذي ينطلق منه الفكر الجديد .

« فهذه الروح العفوية التي تغذيها التجارب ويصقلها الفكر والبحث ، ولكن لا توجدها التجارب ولا العلم والفكر ، هي التي تميز بين الصدق والكذب ، وهي المقياس وكلمة السر » .

لذلك فإن الفكر الجديد قام على اساس من أعمدته الكبرى ، ألا وهو (الاخلاص للحقيقة) ، حقيقة الأمة . وتحمل مسؤوليات هذا الاخلاص ، بالدخول إلى :

« ساحة العمل ، والاقبال على التضحيات ، وتحمل أعباء النضال بدرجة من الجد والحيوية تظهر للشعب الفارق الجوهري بين الفكر الملتحم بقضية الأمة وبين سياسات التخدير والتضليل التي تتخذ من المبادىء والأفكار لعبة في سوق التنافس الحزبي . . . »

فالفكر الجديد ملتزم بحقيقة الأمة وبمصلحة الأمة ، التي هي (مصلحة العدد الأكبر) ، والايمان بهذه الحقيقة (يسبق المعرفة

الواضحة) ، لأن من الأشياء ما هو بمرتبة البديهيات . لا يحتاج إلى براهين ودراسات ولكنه يتعزز بها . فالانتساب الى الأمة ، والايمان بقدرتها على مواجهة تناقضات واقعها ، والانتصار عليها ، هو من هذا الطراز من الحقائق ، التي يتحد فيها القلب والعقل معاً ، والتي تأتي نتيجة اتحاد الانسان بقضية أمته . (فالايمان الحقيقي هو نتيجة للألم وللمعاناة) التي تصهر طرفي المعادلة . وهذا الايمان هو الذي (يبعث على المعرفة ويضيء طريقها ويغذيها) .

لذلك كان (الفكر الجديد) الذي ولد مع (المرحلة الجديدة) نقيض (التفكير المجرد) المغترب وحرباً عليه ، وتجاوزاً له :

« في بلادنا عدد غير قليل من المثقفين المشوهين الذين عاشوا في وسط اجتماعي فقدت منه الروح العربية ، ثم تعلموا في المعاهد الاجنبية او في ديار الغرب . ففقدان الروح العربية يقود إلى الثقافة المجردة . . . الثقافة ليست شيئاً جامداً يدخل على الرأس ويستقر ، وإنما هي حركة وحياة تتفاعل مع الشخص وتؤثر فيه ، لها حاجات ومطالب ومستلزمات ، ولها وسط تنبت فيه . . . فإذا دخلت الثقافة الغربية على عقل عـربي غير مسلح بالثقافة العربية ، فإنها تنقله إلى الحياة الغربية . . . إن في بلادنا عدداً غير قليل يعيشون معنا في اجسامهم بينما فكرهم منجذب إلى الغرب وتاريخه وتقاليده وسياسته وثقافته . . فالفرد العربي المثقف بالثقافة العربية عندما تدخله الثقافة الغربية تكون له طاقة وحافزاً وسلاحاً يمكنه من معرفة ذاته والتأثير في الواقع والعمل على اصلاحه . لأنها ثقافة نشيطة راقية . أما المثقفون ثقافة غربية فهم فاقدون لهذه الشروط . لأن الثقافة الغربية مرتبطة بحياة الغرب . وهؤلاء ليس لهم جذور في واقعهم العربي » .

إن استيعاب (الفكر الجديد) لهذه الحقيقة ، قد جعل هدفه الاساس تحقيق المعادلة الصحيحة بين التراث والمعاصرة . بين الاصالة والحداثة . بين المعرفة والثقافة والنضال . لذلك فإن هذا الفكر « لم يأت من الكتب ، ومن الأفكار المجردة ، وإنما أتى من صميم الحاجة ـ أتى بدافع الحاجة الحيوية ـ لإنقاذ الأمة من الفناء ، لأن معركة الأمة مع أعدائها هي معركة بقاء أو فناء » .

فقد فهم هذا الفكر الثقافة على أنها « نوع من انواع النضال » فهي « نضال مع النفس ، ومع الفكر لكي يتعب في تحصيل المعرفة ، ولكي يجرؤ على تبديل

الأسس السطحية في التفكير الشائع ، لكي يعيد النظر في كل الأمور الأساسية حتى يصل إلى النظرة الجديدة » . أذن فالمسألة هي في تغيير العقلية وتغيير منهج الفكر ذاته . وقد اتسم منهج الفكر الجديد بسمتين رئيسيتين هما : (علميته) و (جدليته) :

« سرنا بهذه العقيدة ، ولم تخيب الحوادث أملنا ولم تخيب امتنا أملنا . اننا نبني عملنا على عقيدة لا تمت إلى الوهم أو السحر بصلة ، وإنما ترتكز على أقوى دعائم الواقعية والعلم »[1]

فالبعث الذي (يمثل شيئاً جديداً في حياة العرب الحديثة في ناحيتي الفكر والعمل) كان أول من أعطى (الثورة العربية صيغتها الموحدة المنطقية الشاملة) وأخرجها (من سجن الافكار والالفاظ العامة الغامضة) وأكد على أنه « بمقدار ما يكون التوضيح العلمي الواقعي للأهداف الثورية وللمنطق الذي يربط فيما بينها ، وللطريق الذي يساعد على تحقيقها ، بمقدار ما يكون هذا عملية خلق » .

وهكذا فإن السمة العلمية لهذا الفكر الجديد كانت وراء التشديد على أن « العقلانية والاختصاص ودور الخبرة والتجربة والعلم والثقافة والافادة من تجارب الشعوب المناضلة والأمم المتحضرة »[1] هي الأسس الثابتة لمنهجه الجديد .

بيد أن السمة العلمية للفكر الثوري الجديد ، لم تنحصر في إطار المفهوم الوضعي ، بل إن جدلية هذا الفكر قد جعلته يفهم (العلمية) من خلال نظرة حية شمولية :

« في حالة التأخر والضعف ، تكون حياة الأمة مسيّرة منفعلة ، خاضعة لسلسلة من العوامل والظروف البعيدة والقريبة ، الداخلية والخارجية ، التي تجعل واقعها نقيض حقيقتها . . . في مثل هذه الحالة لا يجدي علم بعض الافراد وكفاءتهم وأخلاق بعضهم الآخر ونزاهته . . . لأن الآلة الكبرى قادرة ان تتحمل مثل هذا الشذوذ لتتمثله وتهضمه وتطبعه بحركتها . . . وكل علم يبقى ضمن إطار هذه الآلة هو ناقص ، وكل اخلاص

مشوب . . . ولو كان العلم صحيحاً لفك صاحبه من اسار هذه الآلة وأخرجها من سجنها ، ووضعه في موضع يشرف منه عليها ليحيطها بنظرته ويفهم سر تركيبها ، ليعرف كيف يهدمها » .

إذن ، فالعلم الصحيح هو العلم المقترن بالثورة على الواقع الفاسد المتناقض مع حقيقة الأمة واستعدادها .

وهذا الربط بين الغلمية والثورية ، يأتي نتيجة للطابع الجدلي الذي اتسم به المنهج الذي أنضجه الفكر الجديد . وجدلية هذا الفكر تأتي بدورها نتيجة لجدلية قوانين الحياة ذاتها التي تدفع باتجاه « تجاوز الحاجة الى تحقيق الموهبة » .

فالثنائيات التي كان يطرحها الفكر النظري ، ويتصور الكون قائماً عليها ، وجدت في الفكر العربي الثوري الجدلي ، الجديد ، وحدتها الجدلية التكاملية التي يتحد من خلالهاالفكر بالنضال ، والنظر بالعمل ، والمعرفة بالتطبيق ، والمثالية بالواقعية :

« المثالي ليس نقيض الواقعي ، لأن الواقعي ليس الذي يستسلم للواقع ، بل الذي يفهمه . وقد يفهمه ليماشيه ويستغله ، أو ليعلو عليه ويغيره . فالمثالي يجب أن يكون واقعياً كي يقدر على تحقيق مثله في العمل » .

حتى التعارض بين عالمي الانسان الداخلي والخارجي ، والتضاد والتناقض ، بين الغاية والوسيلة ، بين الارض والسماء ، قد وجدت في الفكر الجديد ، وحدة وتكاملاً ، وليس توفيقاً وتعادلاً :

« ابعد الناس عن فهم الحياة ، هم الذين يعتقدون بإمكان التوفيق بين النقيضين : باستطاعة المرء أن يربح من غير خسارة ، أن يصعد إلى السماء وقدماه لا صقتان بالأرض . اذا صح ذلك فلأن هذه السماء التي يقصدونها حقيرة إلى حد أن المرء يتناولها وهو قاعد . . . وهناك وهمان يجب أن يبددا . . . الأول ان نحسب السماءَ تبلغ بلا مشقة ، والثاني حساب المشقة وحدها موصلة إلى السماء ، أو أنها هي السماء » .

وهكذا فإن النظرة الجدلية التكاملية التي تشكل احد الاسس التي قام عليها الفكر الجديد ، قد حسمت الموقف النظري والعملي من الواقع العربي الراهن وكذلك موقف الانسان العربي من ذاته وقيمه :

« للعالم ، للفنان ، لكل أرضه وسماؤه .. هذه السماء لا تبلغ إلا بتضحية الأرض ...

للحياة قوانين ... من هذه القوانين : أنه لا ربح بلا خسارة ولا ربح إلا على قدر الخسارة ... إلى حد أن الذي يقبل بأن يخسر كل شيء ، يستطيع وحده أن يأمل بالربح الاكبر .

وهناك وهمان يجب أن يبددا .. الأول ، أن نحسب السماء تبلغ بلا مشقة .. والثاني ، حسبان المشقة وحدها موصلة إلى السماء ... إن المشقة محتومة ولكنها ليست مرغوبة ، ومن الواجب التغلب عليها حتى تخف وتختفي . عندئذٍ يصبح الذي يضحي بالأرض دون أن يشعر بألم التضحية عائشاً في السماء .. أو أن الأرض لديه تستحيل سماء . » .

ففي النضال تتوحد المتناقضات وتنصهر ، وتولد حقائق جديدة . فالزمن يتحول عندئذٍ إلى « مستوى نفسي وفكري نعيشه » و « المستقبل لا يعود هو الزمن الذي سيأتي » ، بل هو « تجسيد لصورة الأمة في وضعها السليم منذ الآن » عندها « يأتي المستقبل الينا ، وينمو فينا ، ولا يعود شيئاً منفصلاً وخارجاً عنا » .

والفكر المناضل هو الذي يوحد بين (المعرفة والعمل) ، لأن « المعرفة لا تكون صحيحة إلا اذا امتحنت بالعمل ، فالعمل يغنيها ويصححها » . كما يوحد بين (العمل والاخلاق) بعد أن كانت الحركات الوطنية السابقة تحيا وتعمل في مستوى التباعد أو التناقض بينهما ، « يأخذون على الاستعمار اشياء كانوا هم أنفسهم يرتكبونها يومياً ، ينادون بالحرية وبالمساواة لا عن قناعة ولا عن معاناة ، وإنما في المظهر والاعلان لدفع التهمة . لذلك لم تكن حركات أصيلة ولم تكن تنبع من الشعب ، ولم تكن تعتمد عليه ، ولا تثق به . وهم في خطبهم يشيدون به ويمتدحون فضائله . فالثقة بالشعب هي أعمق من ذلك ، إنها تبدأ بالصدق » .

وهكذا فإن الفكر المناضل يشكل التركيب الجديد الذي يتجاوز انواع التضاد والتناقض والطلاق ، التي كانت قائمة في الواقع النضالي ، بين النظرية والتطبيق ، وبين الوسيلة والغاية ، وبين الطليعة والجماهير . . . لأن الفكر الجديد ينبع من فكرة الانقلاب الجدلية . . فهو خلق جديد لعقلية جديدة ونفسية جديدة وتكوين لجيل جديد يحقق (امة الانقلاب) قبل أن يقود (انقلاب الأمة) فالخميرة النضالية التي تسمح بقيادة تحوّل تاريخي شامل وكامل ، هي جوهر المهمة النضالية للفكر الجديد . لأن النظرة الانقلابية التي تشكل نقطة الانطلاق في هذا الفكر ، تقوم على فهم جدلي لطبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع العربي :

« فالمجتمع العربي بحاجة إلى أن يغالب نفسه ويناضل نفسه ، بحاجة إلى بذل جهد ومشقة كبيرة حتى يسترد ذاته الحقيقية ، حتى يصل بالجهد والمشقة إلى أصالته ، حتى يتحرر من الزيف الذي أصابه . . . الانقلاب تعبيره العملي هو النضال . والنضال له معانٍ كثيرة ، لا تنحصر في النضال السياسي وحده . فالأمة العربية بحاجة إلى أن تغالب نفسها بعد تلك الغفوة الطويلة ، وأن تنظر مجدداً الى الحياة نظرة عميقة بطولية . . . كيف تنتقل من حالة الى نقيضها اذا اكتفينا بتغيير المظاهر والاشكال دون تغيير في الروح . . أي دون انقسام داخلي في نفس الأمة ذاتها . . . كيف نحقق من جديد امة واحدة . . . إن النضال بمعناه الواسع العميق هو السبيل إلى بعث الروح العربية وتحقيق الانقلاب العربي . . . إن النضال ، الذي هو التعبير العملي عن الانقلاب ، هو الذي يخلق الادوات الحية ، أي المناضلين ، الذي يصبح الانقلاب شيئاً حياً في نفوسهم وعقولهم واخلاقهم ، او يصبح حياتهم ذاتها » .

وهكذا تمضي نصوص (في سبيل البعث) لتؤكد النظرة الجدلية الى العلاقة بين الفكرة والحركة ، وبين التنظيم والفكرة :

« ان التنظيم الملائم للحركة الانقلابية هو الذي يستمد من تعريفها . هو الذي يضمن ثبات الفكرة ووحدة الحركة » .

وكذلك لتؤكد جدل الذاتي والموضوعي ، والمفهوم الجدلي الحي للزمن :

« إن زمن الحركة الانقلابية يرجع آخر الأمر إلى نشاطها وصدقها وجديتها ، فاذا كانت مقدرة لمسؤوليتها فإنها لن تضيع اية لحظة . . ففكرة السرعة هي من صميم الحركة الانقلابية . . لأن الحركة الانقلابية هي التي تستطيع السيطرة على الزمن وتعجيله . فهي اذن الحركة التي تعجل سير الزمن » .

فالانقلاب صراع (لا انقلاب بدون صراع) فالأوضاع المفروضة على الأمة « الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، انما تتمثل في عقلية اشخاص وفي مصالح وعادات تألف هذه الأوضاع وتحرص عليها وتدافع عنها . فلا يمكن محاربة هذه الأوضاع إلا من خلال الذين يتمسكون بها ويستفيدون منها . فحركة الانقلاب لا بد أن تعاكس وأن تصارع العقلية والخلق والمصالح السائدة ، والبعث يولد من هذا الصراع » .

إن الصراع : « يشطر المجتمع إلى معسكرين احدهما يدافع عن القديم والمصالح الخاصة والثاني يدافع عن القيم الجديدة . . وهذا الانقسام يكون مؤقتاً لأن النصر يكون للانقلابيين . لأن كل معسكر منهما إنما يصارع نفسه وهو يصارع الآخر . فكأن المعسكر الثاني هو التجسيد للبذور الكامنة فيه » .

وهذه النظرة الجدلية ،تجد في الانقلاب :أي في (مغالبة التيار)، ومغالبة (النفس) ، و (مغالبة الواقع) سبيلاً وحيداً لتكوين الشخصية العربية من جديد ، « واطلاق الفكر الحر المستقل »، كما تجد في (السير التقدمي الصاعد في طريق الانقلاب السبيل الوحيد لالتقائنا بماضينا الحضاري) لأن هذا (الالتقاء لا يكون إلا ارتقاء) : (لقد كان ماضينا انقلاباً ، ولن نبلغ مستواه ، ولن نلتقي به إلا عن طريق الانقلاب) .

هكذا تتعامل النظرة الجدلية الجديدة مع الماضي الحي ، والحاضر ، والمستقبل . وتجد في (الأنقلاب) المعاناة الكليّة ، التي ينبثق منها التركيب الجديد الموحد للسلسلة التاريخية .

(فالانقلاب الجديد هو السير الواعي الجاد نحو هذا المرتفع الذي يحل فيه التناقض وتوحد الاضداد ، ويلتقي الماضي بالمستقبل ، وتتصالح الأمة مع نفسها في الابداع واداء الرسالة) .

ومفهوم (التاريخ) نفسه حسب النظرة الجدلية الجديدة ، هو مفهوم علمي جدلي :

« فالانقلابي يؤمن بأن الانقلاب قدر تفرضه شروط التاريخ ومواهب الأمة نفسها ، ويؤمن بأن الشعب مستعد لتلبية هذا الانقلاب . . هذا الايمان هل يستند إلى تفسير جبري للتاريخ ؟ قلنا أن لا موجب عندنا لمثل هذا التفسير . فمبررات الانقلاب هو في الواقع نفسه لا في التاريخ » .

وتصوّر المرحلة التاريخية الانقلابية ، يقوم بالاضافة إلى ملاحظة التناقضات القومية والاجتماعية والحضارية التي بلغت حداً انفجارياً ، على كونها تتضمن « في خصائصها أن تكون قيادة الحركة الشعبية بيد أقلية انقلابية . إذ لو كانت اكثرية الشعب على وعي لمساوىء الأوضاع حق الوعي ، ولو كانت قادرة على تنظيم نفسها ، لما كانت المرحلة انقلابية » .

فالفهم العلمي الجدلي للمراحل التاريخية إذن ، هو الذي يستوعب العلاقة الحقيقية بين الفرد والمجتمع :

« فالمتنبي ، شاعر القوة ، هو في الحقيقة رد فعل لعصر الضعف ، لذلك فهو يمثله تمثيلاً صادقاً . فالحرية في عصر الضعف تصبح على حساب المساواة . فالفرد يرفض التساوي مع غيره لأنه لا يجد مجموعاً حياً ينتسب إليه ، وهو وحيد ، لذلك يقول بمبدأ التفاوت ويتخذ لنفسه مثلاً أعلى يعلو بنسبة افتراقه عن مثل الآخرين واختلافه عنهم ، واحتقاره لهم . وللمتنبي في التعبير عن هذا أقوال كثيرة . ففي حين أن في الجاهلية ضيق ينبىء عن أمل واسع وثورة تتهيأ ، في حين أن ثورة الفرد التي يمثلها المتنبي ثورة يائسة إلى أبعد حدود اليأس ، لأن العلاقة الحية التي لا يمكن للفرد أن يعيش بدونها ، وهي الارتباط بمجموع حي ، قد فقدت في عصر الضعف وطغيان العناصر الاجنبية وتفكك الكيان العربي » .

كما أن النظرة الجدلية للفكر الجديد ، هي التي تستوعب العلاقة بين الامة ورسالتها .

« نرى البعض يقولون مثلاً بأن العروبة فوق الجميع .. وفي مثل هذا القول خطر . فنحن نؤمن بأن العروبة فوق المصالح والانانيات والاعتبارات الزائفة . ولكن شيئاً واحداً نؤمن بأنه فوق العروبة ، ألا وهو الحق . فالعروبة يجب ان ترتبط بمبدأ ثابت يكون هو الضامن الوحيد لتجدد ولتكامل ولاستمرار حياتها نحو النمو والاتساع ، فيجب أن يكون شعارنا : الحق فوق العروبة إلى أن يتحقق اتحاد العروبة بالحق » .

وهذا المنهج الجدلي هو الذي جعل الفكر الجديد يدرك بأن التعامل مع الواقع الحي أي مع الظاهرة القومية ، شيء آخر يختلف عن البحث في موضوعات نظرية مجردة :

« التفكير المجرد يوهمنا أن الواقع جامد ساكن عام في مادته الأولى ، نستطيع أن نحلله ونشرّحه إلى عناصر مستقلة نعيد تركيبها ونبدل بعضها من بعض كما يحلو لنا ، مع أن الواقع الحي كل متماسك حي بتماسكه ووحدته ، سابق لكل تحليل ، ذو فردية كاملة بذاتها .. التفكير المجرد يعري الاشياء من لحمها ودمها ، ويفقدها لونها وطعمها ، ويبعدها عن الدقة والضبط ، فالأضداد تتشابه ، والمتفاوتات تتعادل ، لأنها اصبحت كلها الفاظاً . واللفظة تساوي لفظة مثلها » .

لذلك فإن تفسير القومية حسب المنهج العلمي الجدلي ، (ينبغي أن ينبعث من صميمها) ، لأن القومية (تذكر حي) أي يقظة في الوعي على حقيقة كانت غائبة عنه ، وتجديد للصلة الحية بها .

إن (الحقيقة الحية) هي من طبيعة جدلية ، تفرض نفسها ، وتتطلب المنهج الجدلي كشرط حتى يكون الفكر (شفافاً) معبراً عن الحقيقة . فالكلام والفكر ، والكلام والشخصية ، والفكر والشخصية ، والفرد والأمة ... هي معادلات جدلية ، أحكم الفكر الثوري الجديد ضبطها ، وكشف تناقضات المرحلة العربية الراهنة من خلالها .

وعلى ضوء هذا المنهج الجدلي ، تضع نصوص (في سبيل البعث) العلاقة بين الحقيقة المشخصة وبين النظرية ، وبين ما هو عام وما هو خاص ، بين المرحلة العابرة وبين المنعطف التاريخي الحي المتطور في مرحلة انتقاله من طور إلى طور جديد منبىء باستمرار عن آفاقه . فمقالة (القومية العربية والنظرية القومية) زاخرة بالنصوص التي تؤكد المنهج الجدلي لفكر البعث :

لقد فرق البعث منذ تأسيسه بين (القومية العربية) وبين (النظرية القومية) فقال ان القومية العربية « بديهية » و « قدر محبب » . اما النظرية القومية فهي التعبير المتطور عنها ، حسب الزمان والظروف ، وأن هذه النظرية تتمثل اليوم في الحرية والاشتراكية والوحدة » .

و « القومية العربية هي قومية » ، بمعنى أن فيها الشروط الأولية لكل قومية . وعربية ، بمعنى أن فيها التطور الخاص بالأمة العربية عبر مختلف العناصر والحضارات والأزمنة . . وبهذا المعنى يأخذ التاريخ قيمة في قوميتنا ، تاريخنا بالدرجة الأولى ، والتاريخ العام بالدرجة الثانية . . . فليس المهم أن تكون شتى المعاني السلبية والايجابية ، كالعنصر والدين والتراث التاريخي ، قد أسهمت ، في الماضي ، في صنع هذه القومية وتداخلت فيها . ولكن المهم هو المعنى الذي نستخرجه من كل ذلك في مرحلتنا الحاضرة ، مرحلة الانبعاث وخلق المستقبل العربي » .

ثم إن القومية العربية لا تعني الانغلاق أمام الحضارة الانسانية ، بل هي على العكس ، في تفاعل مستمر معها . على أن قوميتنا ، برغم هذه المرونة وهذا الشمول ، تبقى قومية ذات شخصية . . . وهي بمنعها القفز الى عالمية مائعة ومجردة ، تقي من الانتكاس والرجوع الى العصبيات الصغيرة » .

وعلى اساس هذه النظرة الجدلية ، فإن (الوحدة العربية ليست عملية جمع وربط ، بل هي عملية صهر إنها (عملية خلق جديد للأمة) .

و (قومية الشعوب التي عانت الظلم وعانت الاستعمار والتأخر ، هي التي تلغي التناقض المصطنع بين القومية والانسانية ، وبين الوسيلة

والغاية ، والموقف من الدين لم يعد ينحصر في (رد الفعل) ضد الرجعية التي تستغل الدين وتجعله أداة معادية للتقدم ، لأن النظرة الجدلية لا تكتفي بطرف واحد من المعادلة الجدلية . فهي في الوقت الذي تستوعب فيه الجوانب السلبية ، وتذهب إلى حد انتقاد (النظرة السطحية إلى مظاهر الالحاد في هذا العصر ، سواء في الشرق أو الغرب ، التي تتوقف عند حدود الاستنكار والاشمئزاز من كل مظهر إلحادي ، دون أن تبحث عن أسباب الالحاد والمظاهر الالحادية) فإنها في الوقت نفسه تنظر الى الإلحاد على أنه (موقف زائف وكاذب وباطل وضار في الحياة) وهي تنظر إلى (الثورة على الدين في اوروبا) بأنها هي (دين وايمان بمثل وبقيم انسانية رفيعة) . وأنها (أقرب إلى الدين في حقيقته الأصلية) . ولكن النظرة الجدلية الكاملة للبعث تعتبر تلك الثورة (موقفاً ناقصاً) لأنها (نبهت الى نصف المشكلة فقط) لأن (الشعوب عندما تستيقظ لا يمكن أن تقنع بالالحاد) فهي لا بد أن (تكمل النقص بالخطوة الايجابية ، وتعود إلى دين واضح سليم منطبق تمام الانطباق على مراميه « الثورية » الأولى) .

وذلك لأن النظرة الجدلية التكاملية هي (فكرة ايجابية تنتهي دوماً إلى تقرير الحقائق الايجابية) ، وخاصة بعد أن بدأت ملامح نضج عامة في التطور البشري تعزز مبدأ التفاعل الحضاري :

« إن الانسانية موجودة وجود القومية . وهي الآن تزداد غنى بتيسر وسائل الاتصال بين البشر . ولكنها لا تذيب القوميات في وحدة تأتي بعدها ، بل تغنيها بتفاعلها المستمر . فبدلاً من أن نقول إن عهد القوميات سائر إلى الزوال ليفسح المجال امام عهد الانسانية ، يصح أن نقول أننا قد بدأنا فعلاً في عهد « القوميات الانسانية » الذي تصبح فيه القومية انسانية بتخلصها من تعصبها وانكماشها وعواملها السلبية الأخرى » .

وعلى أساس هذا المنهج الجدلي ، قامت عدة مقولات جدلية في فكر البعث ، كمنطق « وحدة الاهداف القومية وتداخلها » والنظر إلى (امكانيات الأمة الواحدة باعتبارها اكثر من المجموع العددي لامكانيات

اجزائها في حالة الانفصال ، (من حيث الكم) ، وكذلك في اعتبار (الجواب على تزييف الحرية) إنما يكون (بتطبيقها تطبيقاً صادقاً ، وليس بالاستغناء عنها) والنظر إلى الحياد الايجابي كصيغة تمثل (تركيباً جديداً) متجاوزاً للتناقضين الايديولوجيين الاساسيين في العالم الراهن :

« والفهم الدقيق لسياسة الحياد يقتضيها أن تتوافق مع المراحل الطبيعية الضرورية لنضج النضال القومي في كل نواحيه . واذا كان اول واجباتنا أن نعبىء كل القوى الممكنة لانهاء الاستعمار وتحقيق الاشتراكية في أسرع وقت ، فإن هذه السرعة ليست غاية في ذاتها . ولا يجوز أن ندفع ثمناً لها الارتماء في المعسكر الشرقي ، مستعينين بقوة مصطنعة خارجة عنا ، ومتجاهلين ضرورة نضج الشعب في نضاله . إن انضمامنا إلى المعسكر الشرقي ، قد يكون هو أقصر الطرق إلى التخلص من الاستعمار ، لكننا نضحي بالطريق الأقصر لكي نصل في النهاية إلى الحل الأفضل : التخلص من الاستعمار ، والحرية في الداخل ، وممارسة كل حقوقنا القومية » .

وهكذا استطاع المنهج الجدلي الذي استند إليه الفكر الثوري الجديد ، أن يكتشف الصلة بين الفكر الثوري والسياق التاريخي ، وأن يحقق الربط العضوي بين (الفكرة والحركة) ، والتكامل بين جدل (الذاتي والموضوعي) ، وبين (المعرفة والعمل) ، وبين (العام والخاص) وبين (العلمانية والتراث) ، وبين (العلم والثورة) . . .

« منظور حضاري جديد »
(المنظور الانبعاثي)

نظر البعث إلى نفسه ، وإلى الأمة ، وإلى مرحلتها الثورية الراهنة ، نظرة يسكنها الزمن ، وتتصل من خلالها ابعاده ، فأصبح التراث

سلاحاً يوظفه الحاضر للانتقال من الانحطاط إلى النهضة . وهكذا تتجدد الصلة الحية بالماضي ، وتنفتح آفاق المستقبل ، وتدخل الأمة العربية التاريخ من جديد حاملة رسالتها الانسانية ، بعد انقطاع ستة قرون .

وتتميز نصوص (في سبيل البعث) في أنها قد حددت تحديداً حاسماً هذا المنظور الحضاري الجديد ، لأنها اعتبرته بمثابة (نقطة انطلاق) اساسية من أجل بناء القاعدة الأيديولوجية المنسجمة مع طبيعة المرحلة التاريخية ، بناء علمياً ثورياً حضارياً :

« حركة البعث حينما بدأت ، كانت قد كوّنت فكرة إجمالية ، تقوم على دراسة اجمالية لمشاكل وقضايا العالم الاجتماعية والفكرية ، عن المذاهب الكبرى التي تحرك البشر في هذا العصر » ولم يكن من ذلك بد ، من أجل ، « وضع قضية ومصير الأمة العربية ضمن قضايا العالم ومصير الانسانية » فكانت النظرة الجديدة ، « النظرة الثورية المتجددة البعيدة المدى ، الطويلة النفس التي تنظر إلى المستقبل نظرة ليست حالمة كنظرة الشعراء ، ليست نظرة التمنيات ، وإنما نظرة في منتهى القسوة والواقعية والجدية . فلم يكن صعباً أن ترى من خلال الواقع الفاسد ، الكنوز المخبأة في ضمير المستقبل المشرق » .

فالبعث قد انطلق من الايمان باستعداد الأمة للنهضة وتلبية حاجات المرحلة الثورية الجديدة :

«الجيل الجديد يؤمن بقدرة الأمة على أن تغلب انحطاطها. فما دام هو قد خرج منها، فهي قادرة أن تخرج من نفسها. وما دام هو قد ارتفع فوقها فهي قادرة أن ترتفع فوق نفسها، لتعود إلى ذاتها الأصيلة».

ومفهوم (النهضة) نفسه ، إنما يرتكز على اساس مفهوم تاريخي حضاري منبثق من نظرة علمية ثورية إلى الأمة :

« إن من طبيعة هذه النهضة العربية الحديثة ، أن يكون طريقها شاقاً لأنها نهضة هيأت لها قرون طويلة . . . وكان لا بد أن تأتي نهضة أصيلة انسانية ، لأنها تأتي من أمة

ألفت حمل الرسالة ، واعتادت أن تنظر إلى الحياة بأنها رسالة » .

لذلك كان (طموح البعث) كبيراً فهو :

« طموح كل شعب أصيل شاعر بشخصيته ، مقدر لمعنى وجوده الانساني ، . . . فهو لا يقتصر على دفع الاخطار والتخلص من الاعداء ومن ظلمهم الذي لحق بنا زمناً طويلاً . طموحنا لا يقف عند حدود السلبية والرفض والتخلص ، وإنما هو طموح ايجابي بنّاء في أن نعمل وأن نسترجع من جديد تجاوبنا الصادق مع الحياة ، وأن نساهم في بناء الحضارة ونساهم في إخصاب القيم الانسانية ، وفي الدفاع عنها ، وفي تجسيدها تجسيداً صادقاً في حياتنا وسلوكنا » .

وهكذا فإن المنظور الحضاري ينبع من الشعور بالانتماء العضوي الى أمة حضارية تنبعث من جديد . . . هذا الشعور الذي يقترن بوعي للتدهور الحضاري في العالم الغربي الذي كان وما يزال بالنسبة للكثيرين ، يعتبر مركز الحضارة ، والمثل الذي ينبغي أن يحتذى :

« الجيل الجديد يؤمن بقدرة الأمة على أن تغلب انحطاطها . فما دام هو قد خرج منها ، فهي قادرة أن تخرج عن نفسها . وما دام هو قد ارتفع فوقها فهي قادرة أن ترتفع فوق نفسها ، لتعود الى ذاتها الأصيلة » .

« إن حضارة المستعمرين تنذر بالانهيار والفشل طالما أنها تتجنى على الشعوب الضعيفة مثل هذا التجنّي . وتغالط وتكاد لا تعرف أنها تغالط ، أي أن الزيف امتزج في نفوسها وأذهانها ، إلى حد أنه أصبح طبيعياً فيها ومن صميم مفاهيمها . . فمن يعيد إلى القيم التي زيفها الغرب المستعمر وأفرغها من معناها ومحتواها . . . من يعيد إليها الحياة والدم إلا الشعوب التي عانت الظلم وعانت تجربة الألم إلى الأعماق ؟ فكأن القدر يهيء شعوب أفريقيا وآسيا وكل الذين عانوا الظلم الخارجي والداخلي ، أن يخرجوا من هذه التجربة بثمرة يانعة لا تقتصر فائدتها عليهم فحسب ، وإنما تشع على الانسانية كلها » .

فالمنظور الحضاري الجديد (ضرورة) ، منبعثة من واقع المعاناة النضالية العميقة (المعاناة الانبعاثية) ، و (حاجة) صادرة عن ازمة التطور الحضاري في الغرب . لذلك فإن المنظور الحضاري الجديد في العالم الثالث ، يأخذ معنى التصحيح والتقويم ، الحضاريين . فالمحرك الأول

لنهضات الشعوب المقهورة في عالم اليوم ، وخاصة الأمة العربية ذات الماضي الحضاري الطويل والعميق في التاريخ ، هو محرك حضاري :

« لكل أمة في مرحلة معينة من مراحل حياتها محرك أساس يهز أعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة ، وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الأمة . . فإذا نظرنا إلى العرب في الماضي ، وجدنا أن هذا المحرك الاساسي كان في وقت ما عند ظهور الاسلام ، هو (الدين) . . . أما اليوم فإن المحرك الإساسي للعرب في هذه المرحلة من حياتهم هو (القومية) ، التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها أن تتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الأصيلة » .

فالمنظور الحضاري مستمّد من طبيعة السياق التاريخي وحاجات المرحلة ومنطقها . لذلك لا يمكن للنهضة العربية أن تكون (أصيلة) من دون منظور حضاري مستوعب لهويتها الحضارية ، وإطارها الثقافي ، وشخصيتها القومية ، ومشكلاتها الاجتماعية ، وهي لا يمكن أن تستعير منظور غيرها لأن المحركات التاريخية ، ليست واحدة :

« فالفرق بيننا وبين الغرب هو أن الأمم الغربية ، والكبيرة منها بصورة خاصة ، أنها أمم ذات قوميات قائمة مستكملة الشروط ، فليست القومية هي المحرك الاساسي ، بل الاقتصاد ، لأن المشكلة الاجتماعية تحتل المكانة الأولى في حياتها » .

فالأمة في الغرب « قائمة ، وهي شيء حقيقي راهن قوي منسجم للحد الكافي ، واعٍ لذاته ومصلحته . فالخلل هناك والنقص يكون في الدولة وليس في الأمة . . . أما في حالتنا ، في حالة الأمة العربية ، فالنقص والخلل ليسا في الدولة فحسب . فالفارق كل الفارق بين حياتنا وحياة الأمم الراقية هو أن ما نحتاج إليه هو معالجة الأمة »

وهكذا فإن المنظور الحضاري في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يكون جزئياً ولا سطحياً ولا عابراً ، ولا سيما إذا كان هناك ثمة انقطاع حضاري :

« اذ كيف يمكن أن نحقق انقلاباً في حياة أمة تخلفت مئات السنين عن مستوى البناء والابداع وأعرضت عن المساهمة في الحضارة الانسانية دون أن تعتمد كل الاعتماد

على اساس متين من العلم والثقافة والافادة من خبرة وتجارب الشعوب المناضلة والأمم المتحضرة . . . وهذه التجارب تعطينا قواعد ودلائل نسترشد بها على أن نلائم بينها وبين أوضاعنا ، ونعدل منها حسب ظروفنا » .

فالمنظور الحضاري للأمة العربية في مرحلتها الجديدة ، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار (ان البون شاسع بين هذه الأمة وماضيها ، وكذلك بينها وبين حاضر غيرها من الأمم) ، وأن الاستلاب وعوامل الضياع في الحياة العربية خلال مرحلة الانحطاط ، قد بلغت حداً (أنكرت معه الأمة نفسها . فنتيجة التشويه الطارىء عليها ، لم تعد تعرف ذاتها) .

وعلى ضوء هذه الحقيقة كان لا بد أن ينتصب أمام المنظور الحضاري الانبعاثي تحديان كبيران هما : تحدي (التراث) ، وتحدي (المعاصرة) . فهو لا بد أن يجمع بينهما أي بين (الأصالة) وبين روح التجدد الدائمة . فالوطن العربي وارث لحضارات قديمة هي أولى الحضارات في التاريخ . وهو ذو شخصية حضارية تبلورت من خلال ثورة الاسلام وتفاعل الحضارات عبر مراحل تطور الدولة العربية التي حملت لواء الرسالة العربية . ولذلك كان من الطبيعي أن يكون للمنظور الحضاري الجديد موقف من التراث القريب والبعيد ـ الفاعل في الحاضر أو الآثار التي تشير الى الماضي الذي استنفد طاقاته القديمة ، فتحول إلى مجرد ذاكرة تاريخية :

« إن اكثر الأقطار التي تؤلف الوطن العربي اليوم ، كانت حتى قبل الفتح العربي ، وبرغم الطابع المحلّي لكل منها ، تؤلف شخصية حضارية واحدة تتغذى بالتيارات الحضارية* التي تمر بها ، دون أن تفقد مقومات هذه الشخصية . وقد كانت مهمة الفتح العربي أن زاد شخصيتها هذه قوة ووحدة فظلت حيّة مستمرة حتى الآن، ويكمن فيها تراث كل الحضارات التي سبقتها . ونحن لا نحارب تراث الحضارات المختلفة في قوميتنا ، بل بالعكس يهمنا أن تغتني به عروبتنا ، تماماً كما يهمنا أن نتفاعل الآن مع حضارات الشعوب الأخرى » .

لذلك فإن المبدأ الأول الذي يقوم عليه المنظور الانبعاثي هو مبدأ (التفاعل الحضاري) . وهذا المبدأ يتعرض للتشويه عندما تطرح منظورات

حضارية تجزيئية مهمتها بعث نزعات حضارية (سلفية) لم يعد لها تأثير حي في الحاضر العربي من أجل محاربة الانبعاث القومي للأمة العربية :

« ولو صح أن كل مرحلة حضارية مرت في بلادنا يجب أن تبعث وأن يعترف لها بقومية خاصة ، لتعددت هذه « القوميات » في كل قطر من أقطارنا . لا في مجموعة هذه الاقطار فحسب . مع أن الواقع أن كلا من الحضارات الفرعونية أو الآشورية ، أو الفينيقية ، قد أدت مهمتها التاريخية في حينها ، وما ظل من تراثها له القدرة على الاستمرار فقد ساهم في إغناء القومية العربية وأصبح جزءاً من مقوماتها » .

وكما يتعرض (التراث الأقدم) للتشويه وللاستغلال من جهات وقوى معادية للحضارة ، كذلك فإن (التراث القديم) نفسه يتعرض للتشويه بدوره على أيدي الرجعية :

«إن الرجعية التي تحمل لواء الدين وتتاجر به وتستغله وتحارب كل تحرر باسمه وتدخله في كل صغيرة وكبيرة لكي تعيق الانطلاقة الجديدة ، هي اكبر خطر على الدين . وهي التي تهدم مجتمعنا وتشوهه » .

لذلك كان لا بد أن يأتي المنظور الحضاري الانبعاثي لينقذ التراث من هذا العبث ، وأن يضعه في مكانه الطبيعي من النهضة المعاصرة :

« إن التشبع بالتراث القومي لا يعني مطلقاً العبودية للماضي وللتقاليد . . . إن اتصالنا بتراث امتنا يزيد في اندفاعنا ويقوي انطلاقنا ، فلا نكون حائرين لأننا نكون واثقين أن كل شيء فينا سيأتي ملائماً لروح أمتنا » ..

فالنظرة الى التراث نفسه ، تأخذ حسب المنظور الحضاري الجديد ، موقعاً مناقضاً للنظرة الرجعية :

« هل يفكر الشباب أن الاسلام عند ظهوره هو حركة ثورية . وبالتالي هل يفكرون بأنه لا يفهم الاسلام حق الفهم إلا الثوريون ؟ . . . إن المدافعين الظاهرين عن الاسلام الذين يتظاهرون بالغيرة اكثر من غيرهم ، وبالدفاع عن الاسلام ، هم أبعد العناصر عن الثورة في مرحلتنا الحاضرة . لذلك لا يعقل ان يكونوا فهموا الاسلام .

ولذلك من الطبيعي جداً أن يكون أقرب الناس إلى الإسلام فهماً هو الجيل الثوري . في حين أن الذين يدعون هذه الصلة ويتشبثون بها هم اعداء الثورة ، هم ممثلو الاوضاع القديمة التي يجب ان تزول لكي تنهض الأمة العربية » .

والموقف نفسه من (التقدمية) المشوهة التي تنطلق من منظور حضاري تابع ، فالمنظور الحضاري الانبعاثي قد كشف ايضاً بطلانها[١٧] :

« إن هذه القومية التي تأتينا من اوروبامع الكتب والمجلات تهددنا بخطر مزدوج . فهي من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها . ومن جهة اخرى تسلبنا واقعنا الحي وتعطينا بدلاً عنه الفاظاً فارغة ورموزاً مجردة » .

وهكذا يبدأ المنظور الحضاري الجديد بالتحرر من آثار المنظورات الأخرى التي امتد تأثيرها إلى الفكر العربي عبر التفاعل الحضاري السلبي الذي كان خلال المرحلة الاستعمارية ، يأخذ شكل غزو للنفسية العربية وللشخصية العربية ، وللفكر والثقافة في الوطن العربي :

« منذ قرن ونصف قرن ، عاد اتصال الغرب بالعرب بواسطة حملة بونابرت على مصر . وقد رمز هذا الداهية إلى ذلك الاتصال بأن علق لوحات كتبت عليها آيات القرآن إلى جانب حقوق الانسان . ومنذ ذلك الحين ما برح العرب (أو الرؤساء الدخلاء على العروبة) يدفعون نهضتهم الحديثة في هذا الاتجاه الأشوه . فهم يجهدون انفسهم ويرهقون نصوص تاريخهم وقرآنهم ليظهروا أن مبادىء حضارتهم وعقيدتهم لا تختلف عن مبادىء الحضارة الغربية ، وأنهم كانوا أسبق من الغربيين إلى إعلانها وتطبيقها . وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً : وهو أنهم يقفون أمام الغرب وقفة المتهم . ان الواقع الذي لا محيد عن الاعتراف به هو أن غزو الحضارة الغربية للعقل العربي في وقت جف فيه هذا العقل حتى أمسى قوالب فارغة ، يسّر لتلك الحضارة أن تملأ بمفاهيمها ومعانيها فراغ هذه القوالب . فحيلة الاستعمار الغربي هي في اغتنامه فرصة جمود العقلية العربية وعجزها عن الابداع ليضطرها إلى تبني المضمون الأوروبي الخاص للمبادىء والمفاهيم الخالدة . فنحن لسنا نخالف الأوروبيين في مبدأ الحرية . بل في ان الحرية تعني الذي يفهمونه منها . . ومن هذه المفاهيم الاوروبية التي غزت العقل العربي الحديث فكرتان عن القومية والانسانية فيهما خطأ وخطر كبير » .

ومن هذه الزاوية ، يأخذ المنظور الحضاري الانبعاثي معنى استعادة القدرة على النظر إلى الأمة وإلى واقعها وقيمها ، وإلى الانسانية ، بمنظار حر مستقل وأصيل ، كما يأخذ معنى الادراك لحاجة أساسية تفرضها طبيعة المرحلة الجديدة :

« فنحن أحوج ما نكون إلى مفهوم صحيح للعروبة نقدمه للعالم وللحضارة وللتفكير الانساني » .

ومنذ البدايات الأولى لفكر البعث ، كان (الافق الانساني) ، و (معنى الرسالة) ، والتطلع الى (مستوى حضاري) يستوعب التقدم الراهن ويضمن المستقبل الذي تتحقق فيه (الانسانية الكاملة) ، ضمن إطار التفاعل الحضاري ، والتجدد الحضاري . . . كان ذلك بمثابة الخط الثابت والصاعد في فكر البعث . . . وهذا ما تؤكده نصوص (في سبيل البعث) التي أنضجت المنظور الحضاري الانبعاثي الجديد :

« لسنا نطلب الاستقلال لننعزل عن بقية الشعوب ، ونقيم سداً بيننا وبين الحضارة الانسانية . لسنا نصبو إلى الحرية لنعيش في الفوضى ، أو نرجع إلى ظلام القرون الوسطى . اننا نطلب الاستقلال والحرية لأنهما حق وعدل قبل كل شيء ولأنهما وسيلة لاطلاق مواهبنا العالية وقوانا المبدعة ، كيما نحقق على هذه الأرض التي هي بلادنا ، غايتنا وغاية كل انسان ـ الانسانية الكاملة » .

فالبعث حركة تاريخية تتصور مهمتها التاريخية من خلال تصوّر انساني شمولي :

« إن حركة البعث حركة تقدمية تحررية ، وهي بذلك حركة عميقة جداً تتصل بالمفاهيم الانسانية الخالدة ، لا بد لها من نظرة اخلاقية، ولا غنى لها عن فلسفة عامة في الحياة » .

و «« حركة البعث تؤمن بالانسانية وبأن للأمة العربية رسالة انسانية وهي لا تفصل بين القومية والانسانية » .

ومنظورها الحضاري الانبعاثي لا يقتصر على نظرة شمولية ، وفلسفة عملية في الحياة ، بل إنه يستوعب معنى الرسالة التي هي حياة ومعاناة وعطاء انساني حضاري) .

« فنحن لا نفهم من الرسالة أنها الحضارة التي لا نستطيع الآن تحقيقها بل ونكاد لا نحسن فهم حضارة الآخرين . الرسالة شيء أعمق وأصدق من ذلك . إنها تجربة حية . تجربة أخلاقية ونفسية تقوم بها أمة عظيمة وتضع في هذه التجربة كل حياتها » .

فللمنظور الحضاري الجديد نظرة الى الثقافة نابعة من هذا الفهم الجديد لعلاقة الفكر بالنضال وبالمرحلة وبالأمة :

« ان كل ثقافة تنحصر في الذهن والتفكير فقط دون مشاركة فعلية وعملية ، ليست ثقافة ناقصة فحسب ، بل هي ثقافة مختلة ومنحرفة من أساسها لأن عنصر العمل مفقود فيها » .

ولهذا المنظور الانبعاثي نظرة الى الدين تختلف اختلافاً اساسياً عن المفهوم الرجعي وعن المفهوم التقدمي السطحي :

« فالمناضل البعثي يجب ان تتوافر فيه شروط صعبة جداً وتكاد تكون متناقضة . فهو حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتجدد والتحرر . ولكنه في الوقت نفسه يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس الانسانية التي هي ايجابية . فهو مهدد ، عندما يحارب الرجعية أن يلتقي بأشكال التحرر الزائف » .

وقد حدد هذا المنظور الحضاري الخط السياسي للحركة التاريخية) :

« كان لا بد أن ننظر إلى ما حولنا في العالم ، وأن نعين موضعنا من العالم ، ولقد كان الصراع ، بادئاً بين المعسكرين فقلنا بالحياد عقب الحرب العالمية ، وكانت حركتنا أول من نادى بالحياد وربطته بفلسفتها ، فلسفة القومية ، التي ترفض النظام الرأسمالي وترفض الشيوعية كنظام ، وتترك المجال حراً لظهور الثورة الحقيقية التي لا تعسّف فيها ولا اصطناع ، والتي تنسجم فيها الوسيلة مع الغاية » .

وذلك لأن هذا المنظور : « لا يريد أن يقضي على صنم الرأسمالية ليقيم مقابله صنم المجتمع الذي يستعبد الأفراد وتقيد فيهم الاندفاعات الخيرة » .

فهو يدرك صواب نظرته الجديدة إلى الانسانية المستندة إلى فهمه الواقعي العلمي والثوري الجديد للأممية :

« فنظرتنا أقرب الى الصواب وإلى الواقع ، من النظرة الماركسية ، حين جعلنا التعاون بين الشعوب تعاوناً حراً ، بين شعوب اختارت النظام الاشتراكي الحر ، وقلنا بتعاون حر بين الشعوب الاشتراكية الحرة » .

فالنظرة الجديدة التي يمتلكها المنظور الانبعاثي نابعة من فهم حي ومباشر لمعطيات المرحلة التاريخية على الصعيدين القومي والعالمي . وهي مرحلة جديدة لم تتمكن الايديولوجيات القديمة أن تستوعبها ، لأنها بنت النتائج العميقة التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، والعالم الجديد الذي نشأ بعدها . وقد كان المنظور الحضاري الجديد للبعث مستوعباً لأهمية امتلاكه لهذه الميزة ، حيث يقول النص:(وحدة النضال في المغرب العربي) عام ١٩٥٦ :

« هذا ما يميز الوعي الثوري الجديد . فالوعي العربي الثوري يتطلب النظرة الشاملة إلى الظروف العالمية والعربية » .

وهذه النظرة الشمولية التي امتلكها فكر البعث، والتي امتدت تاريخياً عبر تواصل الحضارات ، واتسعت جغرافياً لكل تجارب القارات الخمس ، واستوعبت مشكلاتها القومية ومعاناتها الجديدة ، خاصة في العالم الثالث . . . إن هذه النظرة الجديدة لم تعتبر نفسها أكثر من فرضية علمية قابلة للتحقيق وللإغناء وللتطور عبر تطور الظواهر التي تتصل بها . وتلك ميزة جديدة أخرى للمنظور الحضاري الانبعاثي (المتجدد) :

« هذه الصيغة الجديدة ، لا نعتبرها صيغة نهائية ولا نعتبرها صيغة كاملة ، اذ ان حياتنا يجب ان تتجدد دوماً وان تنمو وتتعمق دوماً » .